Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التمساح المعدني

تنفخ الريح بشفتين متجلدتين على صف طويل من بشر بدوا بلا ملامح في ظلمة الفجر الشتائي. انتظموا كالأشباح على الرصيف كأنهم أعضاء في منظمة سرية للبكاء وتعذيب الذات.

ينحني سليمان من وقفته مقرفصاً. ينطوي على نفسه كمن يحتضن جرحه. يحاول عبثاً تغطية وجهه بطرفي ياقة معطفه. (ما الذي أفعله هنا؟

ها هو ألم ضرسي يستيقظ من جديد تحت مطارق البرد القارس. لو قال لي منجِّم يوم كنت شاباً غارقاً في دفء شواطىء بيروت إنني سأقف أمام مركز البوليس في باريس بعد عقدٍ ونصف عام ١٩٨٥ غارقاً في الذل في الخامسة فجراً بانتظار فتح الأبواب ومؤشر حرارة الجو يشير إلى خمس درجات تحت الصفر لسخرت منه أنا الآمن في «امبرطوريتي» البيروتية.

يومئذ كنت أمارس هواية صيد السمك فوق صخور شاطىء «رأس بيروت» وأشعر أن جسدي جزء من الصخرة تحته ومستقر فوقها و «الحجر في مكانه قنطار»(*) كما كان يردد أبي).

ينبض ضرسه بالألم مرسلاً سهامه في الاتجاهات كلها.

يكاد يشعر بالندم لأنه حيث هو. (كان عليَّ أن أكتب رسالة إلى مدير البوليس الفرنسي أشكو فيها هذا الإذلال اليومي البارد للغرباء، كما فعلت ليلى احتجاجاً وحملت طفلها فراس وعادت به إلى بيروت وهي تقول: سأموت تحت القصف بدلاً من هذا الإذلال الصامت البارد.

ولكن ما الذي بوسعي أن أكتبه أنا لمدير البوليس؟ وهل يعاملني أهل بلدي بأفضل مما يفعل رجاله؟ هل أقول له إنني لست هارباً من القصف بل مما هو أمرّ وأدهى؟ وعلامَ ألومه وجثة بلدي المتدلية من عنقي ما تزال تذكرني بمآسي الفوضى؟

(*) «الحجر في مكانه قنطار» مثل شعبي ضد مغادرة المرء لمسقط رأسه.